الفصل الثاني

الحضارة السودانية

عرفت هذه الحضارة في المنطقة الممتدة من مصب نهر السنغال غربًا، فتشمل الأراضي التي تقع جنوبي الصحراء الكبرى والممتدة نحو الشرق حتى النصف الجنوبي لشاطئ البحر الأحمر، كما تضم الأراضي التي تشغلها قبائل الباتنو والتي تمتد من منابع النيل العظيم حتى المنطقة التي تشغلها روديسيا الجنوبية. وأهم ما يميز هذه الحضارة هي أن شعوبها الأفريقية المختلفة تتبع نظمًا ودساتير متشابهة كأنها مُنبثقة من مصدر واحد.

وكان على رأس دول هذه المنطقة ملوك تقدم لهم فروض التقديس ويحيون حياة مستقلة عن بقية أفراد الشعب، فإذا قابل أحد الملوك رعيته فمن خلف الحجاب، حتى أقرب المقربين من بلاطه ما كان يجوز له أن يرى الملك وهو يأكل أو يشرب.

وفي كل عام يضرب الملك الأرض بالفأس ويلقي الحب والبذور؛ إذ يتوقف خصب الأرض وسقوط الأمطار على مزاج الملك وهواه. وما كان للملك المقدس أن يموت ميتة طبيعية كبقية شعبه. فإذا بلغ به الكبر أو اشتد به المرض فعليه أن يتناول السم ليموت أو يخنق في احتفال ديني. وطبقًا لطقوس دينية معينة يحكم فيها بالموت على بعض من الناس، وبذلك تشمل الاحتفالات الجنائزية للملك المقدس بعض الضحايا البشرية. ثم

تحنط جثة الملك ويحتفظ بالبقايا كالشعر والأظافر داخل المقبرة كجزء من تراثها وكانت تقام الشعائر الدينية في الليالي المقمرة كما تبقى النار المقدسة موقدة في كل مكان ويحافظ عليها وعلى استمرار اشتعالها لأنها رمز لحياة الملك وسلطانه.

لم يكن النظام السوداني نظامًا إقطاعيًّا. كما لم يعتمد على الوراثة أو سلطة العائلات الكبيرة، بل كان النظام في عمومه يقترب من البيروقراطية؛ إذ كانت السلطة في أيد موظفين لا يباشرون أعمالهم داخل مكاتبهم، بل في حضرة الملك عندما يحلو له ذلك وفي الوقت الذي يروق للملك، الذي كان ينقل الموظفين من وظيفة إلى أخرى أو يرقيهم أو يعزلهم بمجرد إيماءة من رأسه المقدسة أو كلمة يستكثر أن يخرجها كاملة من فمه المقدس.

وكان يحيط بالملك عدد من ذوي الألقاب بقدر ما تحتمل ميزانية الولايات ويتولى رياسة الإدارة عدد قليل من كبار الموظفين يبلغ الأربعة ويلي هؤلاء رؤساء الأقاليم والمناطق وهي وظائف يتوارثها الأبناء والأقارب الذين تعلموا في البلاط.

وأهم عمل يقومون به هو جباية الضرائب للملك وكانت تتألف من مواد استهلاكية كالخمور والطعام أو عمال وزوجات، أو مواد تجارية كالعاج والجلود والذهب والنحاس والملح وجوز الهند. إذ كانت التجارة الخارجية احتكارًا للملك ووقفًا عليه.

وكان الفنانون وأهل الحرف يرغمون على الإقامة في عاصمة الملك إذ كانوا مظهرًا من مظاهر سلطة الملك وقوته. وبمعنى آخر يمكن القول إن

الحضارة السودانية قامت على مجموعات من قرى الفلاحين والزارعين أكثر منها في مجتمع ينمو طبيعيًّا.

ويعتقد بعض المؤرخين أن هذه الأجزاء من أفريقيا كان يتولى الحكم فيها دخلاء من الخارج أكثر ثقافة من المواطنين الأصليين؛ حتى ليمكن القول إن الدولة السودانية ما هي إلا امتداد لغيرها من الدول المجاورة.

وجاء ذكر غانا لأول مرة على لسان المؤلف العربى (الفزاري) وهي تبعد حوالي ٥٠٠ ميل شمال غربي السودان. ثم زادت معرفة المسلمين بغانا بما كانت تصدره إلى شمالي أفريقيا من الذهب وقد وصفها البكري جغرافي قرطبة، فقال:

(يعلن عن قاصدي الملك بقرع الطبول وعندما يقتربون منه يخرون سُجدًا وينهلون على رؤوسهم التراب علامة على الاحترام والإجلال لذات الملك. وكانوا وثنيين يعبدون الأصنام وعندما يموت الملك يشيدون على مقبرته صرحًا كبيرًا من الخشب ويأتون بالجثة مسجاة على فراش مغطى بالسجاد ويدفنونها وبجانبها حلي وأسلحة وآنية تحتوي على ألوان مختلفة من الطعام والشراب ويدفنون معه هؤلاء الذين كانوا يقومون على خدمته في أثناء تناوله الطعام ثم يدعون الناس ليهيلوا التراب على المقبرة حتى تصبح وكأنها ربوة يحفرون حولها حفرة تحدد المدخل الوحيد للمقبرة).

كما ورد ذكر مملكة (كانم) في الشمال الشرقي لبحيرة (شاد) وكذا مملكة (زغاوي) بمعرفة (اليعقوبي) في القرن التاسع عشر في حين كان (المهلبي) قد أوضح في القرن العاشر أن هذه المملكة ما هي إلا مملكة

مقدسة على نمط الممالك السودانية. فقد قيل إن مملكة (زغاوي) كانت دولة كبيرة يجاورها من جهة الشرق دولة النوبة جنوب مصر حيث لم يكن يفصل بينهما إلا مسيرة عشرة أيام. وكانت تتكون من قبائل متعددة عامرة بالحضارة آهلة بالسكان بيوتهم وقلاعهم مبنية بالجبس.

وكانوا يعبدون ملكهم ويقدسونه ويعتقدون أنه لا يتناول الطعام في حين كان الطعام يؤخذ إليه سرًّا. فإذا تصادف أن رأى أحد الرعية الجمال وهي تحمل ألوان الطعام إلى الملك فإنه يقتل في الحال.

كان الملك يتمتع بسلطة مطلقة نحو رعيته، فهو يستطيع أن يستولي على مواشيهم وأغنامهم وجمالهم وخيولهم دون أن يجرأ أحد على الاعتراض؛ إذ أنهم يؤمنون بأن بيده الحياة والموت والصحة والمرض.

سجل الرحالة العربي (المسعودي) من بغداد والذي سافر بحرًا من الخليج الفارسي حتى الساحل الشرقي لأفريقيا إلى (سوفالا) في موزمبيق، وذلك في سنة ٩٢٢، سجل قيام تجارة الذهب والعاج وشحنها من (سوفالا) إلى عمان ومنها إلى الصين والهند وهذه التجارة نشأت من دولة أفريقية كبيرة في روديسيا الجنوبية وكان ملكها يلقب بابن السيد الأعظم إله السموات والأرض وكان معروفًا للعرب الذين كانوا يترددون على الساحل الشرقي لأفريقيا.

انتظمت هذه الشعوب المتقدمة في دول على النمط السوداني وتكونت في أوغندا ورواندا واوراندى والأجزاء المتاخمة لأقليم (كيفو) في الكونغو دول على النمط نفسه، حيث أمكن تتبع استمرار التاريخ

التقليدي خلال خمسمائة عام أو ما يقرب من ذلك. هذا وقد أكدت الاكتشافات الحديثة أنه يمكن إرجاع تاريخ تلك الدول إلى وقت يعاصر حضارة روديسيا وكاتانجا.

وتشير التقاليد التي سجلها العلماء المسلمون الذين عاصروا الحضارة السودانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى أن أصل حضارة دولة صنغاي التي قامت على الجانب الشرقي للنيجر يشابه إلى حد كبير حضارة (كانم) و(غانا) القديمة.